٢٩ـ كن عبدًا توابًا

اعلم يا بني ويا بنيتي أنه لا أضر بالعبد، ولا أخوف عليه إلا من معصية ربه، وارتكاب الذنوب.

وهو بهذا يعرض نفسه لغضب الله تعالى وعقابه.

فعصيان الله تعالى حرب، وارتكاب الذنب مبارزته تعالى، والعبد خاسر لا محالة، ومُهلك نفسه دون ريب.

بالذنب تُعكر الحياة، ويُكَدَّر العيش، ويُقتَّر الرزق، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه :١٢٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٦] .

وعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ ". (١)

ولهذه المساوئ يجب على المذنب سرعة الرجوع بعد المعصية، وعدم التمادي فيها، أوتأجيل التوبة لساعة الموت، ومفارقة الحياة.

فَمَسَوْف التوبة يخشى عليه من خلتين:

" **إحداهما:** خوف المعالجة بالموت أن يكون أجل الله عز وجل، في روحه، قبل الأجل الذي أجّله لتوبته، فيموت بحسرته لم يبلغ أمله، ولم يتب من

(١)رواه أحمد وابن ماجة والحاكم في مستدركه وابن حبان .

ذنبه، فلا إلى الله عز وجل تاب، ولا بلغ من لذته ما أراد، فمات بغصّة الدنيا والآخرة.

والخلة الثانية: خوف أن يضرب الله عز وجل قلبه بعقوبة مانعة له من التوبة، من القسوة والرين، أو الطبع أو المرض أو الإقفال، ويكون أجَله مع ذلك مؤخرًا. فيطول عمره بالسكرة والحيرة، فإنما يُملى له ليزداد إثما"[١].

إن العبد يا بني يجب أن يكون يقظًا مراقبًا لأفعاله، وأقواله، ينظر فيها جميعًا ويحسب عواقبها، فإن رأى أن العاقبة سيئة، توقف عنها، وإلا أحاطت السيئات بالقلب وعملت على إفساده، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين: ١٤]. [٢]

و" أصل فساد القلب، ترك المحاسبة للنفس، والاغترار بطول الأمل، فإذا أردت صلاح قلبك فقف مع الإرادة وعند الخاطر، فخذ ما كان لله، ودع ما كان لغيره". [٣]

وإياك يا بني أن يغريك عظيم كرمه، واتساع عفوه، وجميل صفحه، فتستهين بمعصيته، فقد روي" عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يغرنكم قول الله عز وجل:﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ

(١)الرعاية لحقوق الله ص١٣١ .
(٢)رواه أحمد والحاكم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان والبيهقي .
(٣) رسالة المسترشدين ، ص ١١٠ .

بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام :١٦٠] ،فإن السيئة وإن كانت واحدة، فإنها تتبعها عشر خصال مذمومة

أولها: إذا أذنب العبد ذنبًا فقد أسخط الله وهو قادر عليه.

والثانية: أنه فرح إبليس لعنه الله.

والثالثة: أنه تباعد من الجنة.

والرابعة: تقرب من النار.

والخامسة: أنه قد آذى أحب الأشياء إليه وهي نفسه.

والسادسة: أنه قد نجس نفسه، ووقد كان طاهرًا.

والسابعة: أنه قد آذى الحفظة.

والثامنة: أنه أحزن النبي ـ ﷺ ـ في قبره.

والتاسعة: أنه أشهد على نفسه السماوات والأرض وجميع المخلوقات بالعصيان.

والعاشرة: أنه خان جميع الآدميين وعصى رب العالمين". (١)

واعلم يا بني أن من أعظم نعم الله تعالى على عباده ـ ليس فقط صبره على ذنوبهم بل ـ أن أذن لهم في التوبة، وأعلمهم بقبولها منهم قال تعالى:" ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [التوبة١٠٤] .

وقال تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[الشورى٢٥] ، و لولا هذا الإذن والقبول لهلك الناس، وكل ما على الأرض قاطبة قال تعالى:﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم

(١)بحر الدموع ص٤٢، ٤٣.

مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل : ٦١] ، وقال تعالى:﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ ﴾[الكهف:٥٨] ، وقال تعالى:﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[فاطر: ٤٥] .

شروط التوبة...

اعلم يا بني أن التوبة صارت" كلمة شائعة على الألسنة، حتى لكأن شيوعها ابتذلها وأطفأ سناها الكريم، ومع أن دلالة الكلمة تجعلها أخطر من أن يجازف بها.

هل يلغو إنسان فيقول: بنيت قصرًا، أو يلغو فيقول: ألفت كتابًا!!

إنَّ بناء قصر شاهق أهون من بناء نفس خربة، وإن تأليف كتاب ثمين أرخص من تأليف نفس فرّق الهوى أقطارها.

والتوبة هي هذا البناء والتأليف، فمن الهزل العجاب أن تدور على الألسنة دون تيقظ وإدراك". (١)

وقد" درج كثير من الناس على النطق في مقام التوبة والاستغفار بكلمات: تبت واستغفرت، ويظنون أنهم بهذا القدر قد تحققت منهم التوبة التي وعد الله عباده قبولها، ولكن الواقع أن التوبة كسائر الطاعات ليست حقيقتها الكلمات تقال، ولا الصور ترسم، وإنما حقيقتها ندم يملك على الإنسان قلبه، على ما فرط في جنب الله، وهذا هو التائب". (٢)

ولخطورة هذه الكلمة وضع العلماء شروطًا للتوبة، يجب أن تتوفر فيها

---

(١) الجانب العاطفي من الإسلام ص١٥٧.
(٢) من توجيهات الإسلام ص٢٢.

حتى يقبلها الله تعالى، فالله لا يقبل الأشياء إلا بشروطها.

وإنَّ "شروط التوبة عند أهل السنة والجماعة ثلاثة:

* الندم على ما فات.

* والترك في الحال.

* والعزم على ألا يعود إلى مثل ذلك في المستقبل". (١)

فأما "الندم فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه:

وأما الإقلاع عن الذنب فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

والشرط الثالث: هو العزم على عدم العودة، ويعتمد أساسا على إخلاص هذا العزم والصدق فيه". (٢)

ولذلك قال النبي ـ ﷺ ـ:" النَّدَمُ تَوْبَة ". (٣)

وقال آخرون:" شروط التوبة ثمانية:

الثلاثة المذكورة...

والرابع: أداء مظالم العباد وحقوقهم.

والخامس: قضاء ما فُوِّت من واجبات الله تعالى.

والسادس: إذابة كل لحم وشحم نبت من الحرام، بالرياضة والمجاهدة.

والسابع: إصلاح المأكول والمشروب والملبوس بجعلها من جهة حلال.

---

(١) حدائق الحقائق ص٣٠ .

(٢) البحر الرائق ص١٥٨.

(٣) رواه أحمد ابن ماجة والبيهقي وابن حبان والحاكم .

والثامن: تطهير القلب من الغل والغش والكبر والحسد والحقد، وطول الأمل، ونسيان الأجل، وما أشبه ذلك". (١)

وقال آخرون:" لا تصح التوبة إلا بأربعة أشياء: حَلٌّ إصرار القلب عن المعاودة، والاستغفار بالندم، ورد التبعات والمظالم، وحفظ الجوارح من الحواس السبع: السمع ،والبصر، واللسان، والشم، واليدان، والرجلان، والقلب، وهو أميرها، وبه صلاح الجسد وفساده". (٢)

و"مر المسيح ابن مريم عليه السلام بقوم من بني إسرائيل يبكون.

فقال لهم:ما يبكيكم ؟.

قالوا:نبكي ذنوبنا.

قال:اتركوها تغفر لكم.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: عجبًا لمن يهلك ومعه النجاة!

قيل له: وما هي؟

قال:التوبة والاستغفار". (٣)

---

(١)حدائق الحقائق ص٣١.

(٢)رسالة المسترشدين ص١١٣.

(٣)العقد لفريد ١٢١.

التوبة النصوح...

اعلم يا بني أن التوبة المقبولة ـ إن شاء الله ـ هي التوبة النصوح وهي: "التوبة البالغة في النصح.

وقيل: هي أن يتوب ثم لا يعود إلى ما تاب عنه أبدًا.

وقال يحيى بن معاذ: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين زلة قبل التوبة.

وقال ذو النون رحمة الله عليه: الاستغفار من الذنب من غير الإقلاع عنه توبة الكذابين". (١)

هي إذًا " توثيق العزم على أن لا يعود لمثله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "التوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والإضمار على أن لا يعود". (٢)

وثَمَّ إقلاع يا بني عن الذنب، ولكن لم يكن الله تعالى ـ أو الخوف منه ـ هو زاجره ومانعه، بل سبب آخر.

كالذي يريد أن يزني ولا يتمكن منه لضعف، أو كبر، أو لم يجد من يزني بها، أو يخاف على نفسه من مرضٍ معدٍ كالإيدز.

وكل من يكف عن الذنب ليس خوفًا من الله تعالى، بل خوفًا على صحته أن يصيبه مرض، أو خوفًا على سمعته، ومركزه ، ووجاهته عند الناس، ليس بتائب بل حريص على عافية نفسه.

---

(١) حدائق الحقائق ص٣١، ٣٢.

(٢) التعريفات ص٧٠.

أو من لم يتمكن من السرقة، لأمر منعه من تنفيذ مخططه، أو لم يجد شيئًا يسرقه.

أو من كان يخوض في أعراض الناس ويغتابهم، ويمشي بينهم بالنميمة، ثم كف عنهم لمرضٍ أو شللٍ في لسانه.

فكل من يكف عن الذنب لمرض أو لضعف أو لعدم تمكن، ليس تائبًا، بل ليس متمكنًا، أو خاليًا من الحول والقوة.

فضل التوبة...

اعلم يا بني أن التوبة النصوح الصادقة تجعل العبد طاهرًا من كل رجس، خالصًا من كل وزر، كما قال نبينا ـ ﷺ ـ:"التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ". (١)

وإذا علمت أن كل إنسان لا يخلو من ارتكاب الذنب، فإن خير الناس من يرجع إلى ربه، يستغفره ويسترضيه، ويعتذر إليه من غفلته وتقصيره قال الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

وقال رسول الله ﷺ: " كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ ".(٢)

اعلم يا بني أنَّ " للتوبة أسرار، ولأصحابها أخبار، فالتائب يزول عنه تصيد المعايب ، وطلب المثالب، لأنه ذاق مرارة ما تقدم، فهو دائماً يتندم.

وهو يفتح باب المعاذير لمن وقع في المحاذير، ولا يفعل فعل المعجب المنان، الذي قال: والله لا يغفر الله لفلان، بل يستغفر لمن أساء من العباد،

---

(١) رواه البيهقي.

(٢)رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.

ويطلب الهداية لأهل الفساد.

والتائب يطالع حكمة الرب في تقدير الذنب، وأنه لا حول للعبد ولا قوة في منع نفسه من الوقوع في تلك الهوة".[١]

وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا حَلِيمَ إِلَّا ذُو عَثْرَةٍ ، وَلَا حَكِيمَ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ ". [٢]

إنَّ" أجمل الكلمات، وأحسن العبادات، لدى رب الأرض والسماوات قول العبد: يا رب أذنبت. يا رب أسأت. يا رب أخطأت.

فيكون الجواب منه سبحانه: عبدي قد غفرت لك، وسامحت، وسترت، وصفحت".[٣]

واعلم يا بني أن الطائعين محتاجين ـ كذلك ـ إلى التوبة، وليس العصاة فقط. فإن من يلتزم العبادة لا يسلم ـ لا محالة ـ من التقصير، وربما الخلل أحيانًا.

وإن أتى بها بلا تقصير أو خلل، فإنه لا يدري هل قامت عبادته بحق الله تعالى عليه أم لا ؟

ولهذا وجبت التوبة في حقه، وإلا صار ممن امتن بطاعته، واغتر بها.

واعلم يا بني أن الكل بلا استثناء عاجز عن القيام بحق الله تعالى، ومكافأته على عظيم فضله وإحسانه.

وكل من لا يرى ذلك فقد وضع نفسه في مواطن الطمأنينة والأمان،

---

(١) مقامات عائض القرني ص٢٠٥، ٢٠٦ .

(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم في مستدركه.

(٣) مقامات عائض القرني ص٢٠٧.

وهي مواطن لا تليق بأي مخلوق.

وأخيرًا...

أقول لك يا بني ما قاله ابن الجوزي في مواعظه :" تناه عن قبيح فعلك قبل انبثاث جهلك، وانظر لنفسك في أمرك قبل حلولك في قبرك .

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل .

ووعظ أعرابي ابنه ، فقال: لا الدهر يعظك، ولا الأيّام تنذرك، والساعات تعد عليك، والأنفاس تعد منك، أحب أمريك إليك أردهما بالمضرة عليك.

ووُجد على حجر مكتوب: ابن آدم، لو رأيت ما بقى من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة في عملك، ولقصَّرت من جهلك وحيلك، وإنما يلقاك ندمك إذا زلت قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، وباعدك الولد القريب، ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة ، قبل الحسرة والندامة".

من فوائد التوبة...

١ـ التوبة من كمال الإيمان وحسن الإسلام.

٢ـ سبب حب الله تعالى ورضاه، لأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

٣ـ سعة رحمة الله تعالى للتائب.

٤ـ ضعف الإنسان لكون الخطيئة جزءًا منه.

٥ـ عموم وشمول مغفرة الله ورحمته لكل ذنب تاب العبد منه وإن كان

شركًا.

٦ـ حرمة المسلم "عرضه وماله" فلا تقبل التوبة من حقوق العباد إلا بأن يأخذ حقه أو يعفو.

٧ـ تجلي الله على التائب ورضوانه وإحسانه.

٨ ـ يُقبل الله على التائب أضعاف إقبال عبده عليه بطاعته.

٩ـ تُسبب التوبة ذهاب الضيق وإزالة الهم.

١٠ـ الرجاء في العفو والتوبة ما دامت الروح في الجسد إلى طلوع الشمس من مغربها وقبل الغرغرة.

١١ـ وجوب التوبة على العموم وعلى الخصوص والمبادرة بها.

١٢ـ المعاصي سواد، والتوبة جلاؤها". (١)

(١) نضرة النعيم ٤/ ١٢٩٥.